الباب الثانى

الكتاب والسنة

منة الله على المؤمنين :

منّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بأعظم الرسل شأناً ، وهو سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيرًا ، وقال تعالى منوّهاً بتلك المنّة فى سورة آل عمران : (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) ، فلولا أن الله تعالى أرسله صلى الله عليه وسلم لهدايتنا ما اهتدينا ، ولا تحلينا بسائر مكارم الإسلام التى سعدنا بها فى ديننا ودنيانا أفرادًا وأممًا .

فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم :

وقد زكى الله رسوله العظيم ، وهيأه لحمل عبئه الكبير ، فحلاه بالعلم الذى لا يشوبه جهل ، وبالفضل الذى لاتشوبه نقيصة ، وجمع له بالعلم والخلق غرر الفضائل التى فاق بها الأولين والآخرين ، فنهل منها الناس على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ولغاتهم ما وسعهم أجمعين ، ولا تزال على حالها منهلا عذبًا فراتـًا للواردين من أصحاب اليمين والسابقين المقربين .

ومنّ الله بالعلم على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (وعَلَّمَكَ مَا لمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) ، وفى قوله تعالى فى سورة الشورى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى ما الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا

وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، وجعل الله من تعليم رسوله صلى الله عليه وسلم آية للمعتبرين فقال تعالى ردًّا على المتشككين فى سورة العنكبوت: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَنْ لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۝ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

معجزة القرآن الكريم :

وقد بين الله فى تلك الآيات المتقدمة أن رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن بين قومه قارئًا ولا كاتبًا ، ولكنه تلا عليهم ما لم يقرءوا أو يكتبوا مثله ، فلا هو بالنثر البيانى المعهود ، ولا هو بالشعر الوجدانى المعروف ، بل هو قرآن يفوق فى بيانه كل بيان ، ويهزّ عند سماعه أو تلاوته كل وجدان ، أحكمت آياته ، وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، لم يتردد الجن حين سمعوه أن يقولوا : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) ، ولم يتردد كفار مكة حين سمعوه أن يقولوا مع كفرهم به : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، أما المؤمنون فما وسعهم إلّا أن يقولوا ماقاله الراسخون فى العلم وحكاه الله تعالى فى سورة آل عمران فى قوله الكريم : (آمنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عند ربِّنا وما يذَّكَّر إلا أُولو الأَلبَاب ۝ ربَّنا لا تُزِغْ قُلوبَنَا بعْدَ إِذْ هَدَيتَنَا وهَبْ لنا من لَدُنْك رحْمةً إنَّك أَنْتَ الوَهَّاب) .

وقد اجتمع فى القرآن الكريم جزالة اللفظة وحُسن المعنى ، لأنه أفصح الكلام وأبلغه ، وكيف لا والكلام عزيز من عزيز ، وعليّ من عليّ ، وحكيم

من حكيم ، لذلك تحدى الله به الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مفتريات مثله ، أو بسورة من مثله ، وأكد أنهم لا يستطعون ، كما أكد أنهم لن يستطيعوا فقال تعالى فى سورة الإسراء : (قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآن لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) ، وقال تعالى فى سورة هود : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ، وقال تعالى فى سورة البقرة : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدنا فأْتوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شهَدَاءَكُمْ مِنْ دُون اللهِ إِنْ كُنتم صَادِقِينَ ۝ فإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتى وَقُودُها النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافرِينَ) .

العرب يعجزون عن تحدى القرآن الكريم :

ولما كان القرآن العظيم نزل بلسان العرب ، وكان العرب أول من تلقاه عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، فقد عجزوا مع فصاحتهم عن تحدى كلام الله ، حيث وجدوه فوق كلام البشر ، وإن كانت مفرداته من مفرداتهم ، وكلماته من حروفهم ؛ ويقول السيد عبد القاهر الجرجانى (المتوفى سنة ٤٧١هـ) فى مزايا القرآن التى أعجزتهم عن تحديه فى كتابه « دلائل الإعجاز » :

« أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجارى ألفاظه ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة ، وتنبيه وإعلام ، وترغيب وترهيب ؛ ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وبيان .

« وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، أو لفظة ينكرها شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه . أو أحرى أو أخلق ، بل وجدوا اتساقًا بهر العقول ، وأعجز

الجمهور ، ونظاماً والتئاماً ، وإتقاناً وإحكاماً لم يدع فى نفس بليغ منهم – ولو حك بيافوخه السماء – موضع طمع . . حتى خرست الألسن أن تدّعى وتقول ، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول » .

ويقول أيضا :

« لولا أن العرب حين سمعوا القرآن ، وحين تُحدُّوا إلى معارضته ، سمعوا كلاماً لم يسمعوا قط مثله ، وأنهم قد رازوا أنفسهم ، فأحسوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه ، أو يقع قريباً منه – لكان محالا أن يدّعوا معارضته – وقد تُحدوا إليه وقُرِّعوا فيه وطولبوا به – وأن يتعرضوا لشبا الأسنة ، ويقتحموا موارد الموت » .

مثال لبلاغة القرآن :

وكمثل من الأمثلة يفتح لنا ، رضى الله عنه ، آفاق التفكير فى روعة القرآن بالآية الكريمة من سورة هود : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فيقول : « إن مبدأ العظمة فى الآية أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم فى أن كان النداء بـ " يا " دون " أى " نحو " يا أيتها الأرض " ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال " ابلعى الماء " ، ثم اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها – نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل " وغيض الماء " فجاء الفعل على صيغة فُعِلَ الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله " وقضى الأمر " ثم ذكْر : ما هو فائدة هذه الأمور وهو " واستوت على الجودى " ؟ ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة " قيل " فى الخاتمة بـ " قيل " فى الفاتحة » ، ثم يقول رضى الله عنه :

« أفترَى فى شىء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها – تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى فى النطق ، أم كل ذلك لما بين الألفاظ من الاتساق العجيب ؟ »

أقول ، وقد حكى الأصمعى أنه أعجب بفصاحة إحدى الفتيات وهى تتكلم ، فقال لها : ما أفصحك ، فقالت : وهل بقيت فصاحة لأحد بعد فصاحة القرآن الكريم ؟ إن آية واحدة من كتاب الله تعالى جمعت أمرين ونهيين ، وخبرين وبشارتين ، هى قوله تعالى فى سورة القصص : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

شرف القرآن :

وحسب القرآن الكريم شرفاً أنه « كلام الله » الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كما سماه الله ووصفه به فى قوله تعالى فى سورة البقرة : (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

وفى قوله تعالى فى سورة التوبة : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) ، وفى قوله تعالى فى سورة فصّلت : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

وكذلك نطقت السنة النبوية الشريفة بفضل القرآن وشرفه فى أحاديث كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال ما رواه الإمام الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » . وأخرج الدارمى والترمذى من حديث علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت يا رسول الله : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل

الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولاتلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب منه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق من كثرة الرد ، لا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدى إلى الرشد ، من علِم علمَه سبق ، ومن قال بهِ صدق ، ومن حكَم بهِ عدل ، ومن عمل به أُجِر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

ولعظم شأن القرآن الكريم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على تلقنه وتلقيه من الروح الأمين جبريل عليه السلام ، فطمأنه ربه على جمعه فى صدره وبيانه له فى قوله تعالى فى سورة القيامة :(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) .

بداية الوحى :

فيما رواه الإمام الطبرى بسنده عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثى عن بداية الوحى بالقرآن الكريم قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور فى حراء من كل سنة شهراً ، يُطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به — إذا انصرف من جواره — الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعًا أو ماشاء من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله عز وجل فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه فيها ، وذلك فى شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء — كما كان يخرج لجواره — معه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها ، جاءه جبريل بأمر الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءنى وأنا نائم بنمط[1] من ديباج فيه كتاب[2] فقال : اقرأ ؛ فقلت : ما أقرأ ؟

---

(١) النمط وعاء كالسفط (سبت) والديباج الحرير .

(٢) وقال بعض المفسرين إن قوله تعالى فى أول سورة البقرة : (آلم . ذلك الكتاب لاريب فيه)=

obeikandi.com

فَغَتَّنِي[١] حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ؛ فقلت : ماذا أقرأ ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود إلىّ بمثل ما صنع بى ، قال : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) . . إلى قوله : (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) ، قال : فقرأْته ، قال : ثم انتهى ، ثم انصرف عنى ، وهببت من نومى وكأنما كتب فى قلبى كتاباً .

قال : ولم يكن من خلق الله أحد أبغض إلىّ من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت إن الأبعد — يعنى نفسه — لشاعر أو مجنون، لا تحدث بها عنى قريش أبداً ، لأعمدن إلى حالق من الجبل ؛ فلأطرحن نفسى منه ، فلأقتلنها ، فلأستريحن .

قال : فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت فى وسط من الجبل ، سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال: فرفعت رأسى إلى السماء ، فإذا جبرئيل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول: يا محمد : أنت رسول الله ، وأنا جِبْرئيل ، قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلنى ذلك عما أردت ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامى، ولا أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ، ثم انصرف عنى ، وانصرفت راجعاً إلى أهلى ، حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخذها مضيفاً[٢]، فقالت : يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إلىّ ، قال قلت لها : إن الأبعد شاعر أو مجنون ، فقالت : أعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم ، ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وحسن خلقك ، وصلة رحمك، وما ذاك يا ابن عم؟لعلك رأيت

=يشير إلى الكتاب الذى جاءه به جبريل فى وعاء من حرير .

(١) قال ابن الأثير : الغت والغط سواء ، كأنه أراد : عصرنى عصراً شديداً حتى وجدت منه المشقة ، كما يجد من يغمس فى الماء قهراً .

(٢) مضيفاً أى ملتصقاً بها مائلا إليها .

obeikandl.com

شيئاً ؟ قال : فقلت لها : نعم ، ثم حدثتها بالذى رأيت ، فقالت : أبشر يابن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة ، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نَوْفل بن أسد ، وهو ابن عمها ، وكان ورقة قد تَنَصَّر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قدّوس ، قدّوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر — (يعنى به جبرئيل عليه السلام) الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بقول ورقة ، فسهل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره ، وانصرف ، صنع ما كان يصنع ، وبدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت ، فقال : يابن أخى ، أخبرنى بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء إلى موسى ، ولتكذبنَّه ولتؤذينَّه ولتُخرَجَنَّه ، ولتقاتلنَّه ، ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرنّ الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه فقبل يا فوخه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

شدة الوحى :

ولا تعجبوا من أن يبلغ تأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأول الوحى ما بلغ ، فقد سمع بالوحى كلاماً لا عهد له به ، ونقله إليه شخص لا يعرفه من قبل ، وقد ضمه إليه بقوة خارقة ، ضغط بها ضغطاً تعب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوة بدنه ورباطة جأشه ، فمن أين جاء ذلك الشخص ؟ وكيف تسلل إلى الغار ليوقظ النائم فيه وحده ؟ وكيف عرف مكانه منفرداً فى قمة الجبل ؟ وكيف يقول للأمى الذى لا يقرأ : اقرأ ؟ وبأى سلطان يأمره أن يقرأ ؟ فلما قال له : ماذا أقرأ ؟ قدم له نمطاً[1] من ديباج فيه كتاب وقال له :

---

(١) النمط وعاء كالسفط (السبت) والديباج الحرير .

(اِقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذى عَلَّمَ بالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

الله أكبر ، يقول له : (اقرأ باسم ربك) أى أغناك ربك فى قراءتك عن الأسباب والوسائط التى يحتاج إليها غيرك من البشر ، فهم يتعلمون على يد معلميهم بالقلم الظاهر ، وعلمك ربك بالسرّ الخفىّ والقدرة العلية اتقرأ باسمه ماشاء لك أن تقرأ ، ولتعلم بعطائه ما لم تكن تعلم ، فأغناك العليم الخبير عن المعلمين لتكون له فى ذلك آية كبرى ، لأنك سيد المرسلين ، ورحمته المهداة للعالمين .

وإذا كان الضياء يبهر البصر إذا أسفر فجأة ، فنور القرآن أحرى أن يبهر قلب الرسول الأكرم إذا غشيه فجأة ، وله صلى الله عليه وسلم كل العذر أن يهتز للأمر الذى عراه ، وكيف لايهتز ويرجف فؤاده من كلام الله الذى تخشع الجبال من عظمته وتندك من هيبته ، فقد قال تعالى فى سورة الحشر :

(لوْ أَنْزَلْنا هٰذا الْقرْآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعًا مُتَصدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاس لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

فلا غرابة إذن أن يرجف فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم من عظم الكلام والمتكلم ، فيقول لزوجته أم المؤمنين سيدتنا خديجة رضى الله عنها : زملونى[1] زملونى ،ولا عجب أن يرجف فؤاده الشريف كلما جاءه الوحى بكلام رب العالمين ، فقد حدثت أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها فقالت : رأيته عليه الصلاة والسلام ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه،وإن جبينه لَيَتَرَفَّضُ عرقًا . أقول وكيف لايكون ذلك منه ، والله تعالى يقول له فى سورة المزمّل : (إنا سَنُلقى عَلَيْك قوْلًا ثقِيلاً) ، ولا يُقدِّر ثقل القرآن إلا العلماء بالله ، وليس أعلم بالله من رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويقول تعالى فى سورة فاطر : (إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * إنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

---

(١) ضعوا على غطاء .

وَعَلَانِيَةً يَرْجُون تِجَارَةً لنْ تبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أجورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فضلِهِ إنَّهُ غفورٌ شكُورٌ * وَالَّذِى أَوْحَيْنا إليْك مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْه إنَّ الله بعِبَادِهِ لخبيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطفيْنا مِنْ عِبَادِنا فمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابقٌ بالْخيْرَاتِ بإِذْنِ اللهِ ذَلِك هُوَ الْفضْلُ الْكبيرُ) .

الإمام الباقلانى و إعجاز القرآن :

ومعجزة القرآن الكريم أخلد المعجزات على مر العصور والدهور ، وهى على الدوام تتحدّى كل الأجيال بإعجازها ، وكما أعجزت الأولين أعجزت الآخرين وتعجز اللاحقين ، وهى دالة بذلك الإعجاز الدائم على صدق رسالة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول فى هذا المقام الإمام أبوبكر الباقلانى (المتوفى سنة ٤٠٣هـ) رضى الله عنه فى كتابه « إعجاز القرآن » :

« والقرآن كتاب دلّ على صدق متحمله ، ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها ، وبرهان شهد له برهان الأنبياء المتقدمين ، وبينة على طريقة من سلف من الأولين ، حيّرهم فيه ، إذ كان من جنس القول الذى زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا فيه الغاية ، فعرفوا عجزهم ، كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن فى العلاج ، والوصول إلى أعلى مراتب الطب ، فجاءهم بما بهرهم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وكما أتى موسى بالعصا التى تلقفت ما دققوا فيه من سحرهم ، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم ، وكما سخر لسليمان الريح والطير والجن ، حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة وبدائع اللطف ، ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الأول والآخر وقوفاً واحداً ، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة » .

ويضيف رضى الله عنه قائلا :

« انظر وفقك الله لماهديناك إليه ، وفكر فى الذى دللناك عليه ، فالحقّ منهج واضح ، والدين ميزان راجح ، والجهل لا يزيد الأعمى إلا عَمًى ولا يورث إلا

obeikandl.com

ندماً ، قال تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتوى الَّذِينَ يَعْلمُون وَالَّذِينَ لَا يَعْلمُون إنَّمَا يَتذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَاب)[١] . . . . . . فاحمد الله على ما رزقك من الفهم إن فهمت (وَقُلْ رَبِّ زدْنِى عِلْمًا)[٢] ، وإن أنت علمت ف(قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بك مِنْ هَمَزاتِ الشَّيَاطِين * وَأَعُوذُ بك رَبِّ أَنْ يَحْضُرُون)[٣] .

« . . ولا يوسوس إليك الشيطان بأنه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية ، وأدرب منك فى الفصاحة أقوام وأى أقوام ، ورجال وأى رجال ، فكذبوا وارتابوا ، لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز ، ولكن اختلفت أحوالهم ، فكانوا بين جاهل وجاحد ، وبين كافر نعمة وحاسد ، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات ، وحائد عن النظر فى الدلالات ، وناقص فى باب البحث ، ومختل الآلة فى وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان ، وغاو تحت حبالة الشيطان ، ومقذوف بخذلان الرحمن ، وأسباب الخذلان ، والجهالة كثيرة ، ودرجات الحرمان مختلفة .

« وهلا جعلت بإزاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامرى فى حُسن إسلامه ، وكعب بن زهير فى صدق إيمانه ، وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا ، على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر أو بحر زاخر ، وقد بينا ألاّ اعتصام إلاّ بهداية الله ، ولا توفيق إلاّ بنعمة الله : (ذلكَ فضلُ الله يؤتيه من يشاء) »[٤] .

الروحانية الكامنة :

أقول : هذا وتقترن ببلاغة القرآن الظاهرة روحانية كامنة كاملة ، تمد بعلم اليقين ، بل بعين اليقين ، بل بحق اليقين ، ذوى البصائر المؤمنة ، الذين يسارعون

---

(١) سورة الزمر الآية ٩ .

(٢) سورة طه الآية ١١٤ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) سورة الحديد الآية ٢١ .

فى الخيرات وهم لها سابقون ، أما عمىُ القلوب فلا يحسون من ذلك شيئًا ولا يهتدون سبيلا ، وما ذنب البستان إذا قصرت فى جنى ثماره ، وما ذنب النهار إذا أغمضت العين عن شهود أنواره ، وهذا ما يفسر لك قوله تعالى فى سورة البقرة : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ۞ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .

وإذا أردت دليلا على تـأثر أسلافك الأولين بروحانية القرآن الكريم ، فاقرأ قوله تعالى فى سورة الزمر : (اللهُ نزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتشابهًا مَثانِىَ تقْشعِرُّ مِنْهُ جلُودُ الَّذِين يَخْشوْن ربَّهُمْ ثُمَّ تلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِك هُدَى اللهِ يَهْدِى بهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فمَا لهُ مِنْ هَادٍ) ، وكيف لا تتـأثر الجلود والقلوب بالقرآن وهو روح ، به تحيا القلوب ، وبهداه تنتعش الأرواح وتزدهر ، وشاهدنا قوله تعالى فى سورة الشورى: (وَكذَلِك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ) ، كما أنه نور يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) ومن أراد الله هداه اهتدى (وَإِنَّكَ لَتهْدِى إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِير الْأُمُورُ) .

وإذا أردت أن ترى بنفسك كيف تقشعر من القرآن الجلود ، فاقرأه على مكث وروية ، وتدبر ما تقرؤه بعقلك وقلبك معًا ، ولا يغب عنك فى سور الشعراء قول الله تعالى : (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِين) ولا يغب عنك قوله تعالى فى سورة ق : (إِنَّ فى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى

السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ؛ وكيف لا تتأثر روحك بالقرآن وأنت من أهل الإيمان ، وقد تأثرت بتلاوته روح الحيوان ، وإليك البيان، فقد ورد فى الصحاح أن الصحابى الجليل أسيد بن حضير كان يقرأ القرآن من الليل ، وكانت بجواره فرسه ، وكان ابنه يحيي ينام قريبا منها ، فلما قرأ جالت الفرس.، فسكت فسكنت ، ثم قرأ، فجالت الفرس ، فخاف أن تصيب ابنه بسوء ، فحانت منه التفاتة إلى السماء ، فوجد أمثال السحاب تزينها أمثال المصابيح تدنو منه عند قراءته ، فعرف سر اضطراب الفرس ، ولكنه حار فى تفسير تلك الظاهرة حتى لقى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو أصبحت تقرأ لأصبح الناس ينظرون إليها وما تتوارى منهم .

ثم انظر كيف كان تسبيح سيدنا داود عليه السلام ينفذ إلى صخور الجبال وإلى أحاسيس الطيور كما قال تعالى فى سورة الأنبياء: (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) . وسبحان من قدّر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته ؛ ثم لاتنس أن الحصى سبحت فى كفّ رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ، ويرحم الله سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الكبير (والد شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى طيبب الله ثراه) إذ يقول فى تسبيح الحصى :

يدك الكريمة سبحت فيها الحصى   هل كان ذاك تعجبًا من ذا الكرم
أو من عماية من رميتهم بهـــــا   فتفرقوا رهبًا وجمعهم انهــزم

بل لقد حنّ حنين الأطفال (كما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه) جذع النخلة لفراقه صلى الله عليه وسلم وقد كان يستند إليه وهو يخطب ، ثم تحول إلى المنبر حين صنعوه له ، وفى ذلك يقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه :

والجذع حنّ وخارَ إذ فارقتــه   فجبرته وخواره عنــدى نغم

obeikandi.com

فالمـــــرء إن لم تعـــره لك هزة   كالجذع فهو مضلل أعمى أصم
أرواحنـــا حنانـــة وقلوبنـــــا   أنانة لك والغرام بنـــا اضطرم

الإمام الباقلانى وفضائل القرآن :

وهذا القرآن المفحم بإعجازه اشتمل على أمور كثيرة أجملها الإمام الباقلانى فى قوله :

« وأنت تتبين فى كل ما تصرف فيه من الأنواع أنه على سمت شريف ، ومرقب منيف ، يبهر إذا أخذ فى النوع الربّى والأمر الشرعى والكلام الإلهى ، الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت ، وشرف الجبروت ، وما لايبلغ الوهم مواقعه ، من حكمة وأحكام ، واحتجاج وتقرير ، واستشهاد وتقريع ، وإعذار و إنذار ، وتبشير وتحذير ، وتنبيه وتلويح ، وإشباع وتصريح ، وإشارة ودلالة ، وتعليم أخلاق زكية ، وأسباب رضية ، وسياسات جامعة ، ومواعظ نافعة ، وأوامر صادعة ، وقصص مفيدة ، وثناء على الله عز وجل بما هو أهله ، وأوصاف كما يستحقه ، وتحميد كما يستوجبه ، وأخبار عن كائنات فى التأتى صدقت ، وأحاديث عن المؤتنف[١] تحققت ، ونواة زاجرة عن القبائح والفواحش ، وإباحة الطيبات ، وتحريم المضار والخبائث ، وحث على الجميل والإحسان .

« تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب ، مجلوة عليك فى منظر بهيج ، ونظم أنيق ، ومعرض رشيق ، غير معتاص على الأسماع ، ولا مغلق على الأفهام ، ولا مستكره فى اللفظ ، ولا مستوحش فى المنظر ، غريب فى الجنس ، غير غريب فى القبيل ، ممتلئ ماء ونضارة ، ولطف وغضارة ، يسرى فى القلب كما يسرى السرور ، ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم ، ويضيء كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، كالروح فى البدن ، والنور المستطير فى الأفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

---

(١) الائتناف هوالابتداء .

obeikandi.com

علاقة السنة بالقرآن الكريم :

أقول ، ومع أن القرآن الكريم ميسّر للذكر وقريب من الفكر ، فإن الأحكام فيه جاءت مجملة ، تحتاج لبيان وتفصيل ، فعهد الله إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بذلك البيان والتفصيل فى قوله تعالى فى سورة النحل: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقد صدع مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه، وبين لأصحابه رضوان الله عليهم ما أجمله القرآن ، فأخذوا عنه تفاصيل العبادات ، وأحكام الحلال والحرام ، وأفتاهم فيما عرضوه عليه من الحوادث ، وكانوا رضوان الله عليهم لايسألونه إلا عما ينفعهم من الوقائع ، فلم يسألوه عن المسائل المفروضة التى لم تقع بالفعل ، لأن هممهم كانت مقصورة على تنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه سبحانه .

مسلك الصحابة فى العلم والقضاء :

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : ما رأيت قومًا خيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض صلى الله عليه وسلم ، كلهن فى القرآن : يسألونك عن المحيض ، يسألونك عن الشهر الحرام ، يسألونك عن اليتامى ، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم . قال أبوعمر : ليس فى الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث ، وقال ابن القيم رضى الله عنه فى كتابه « أعلام الموقعين » : ومراد ابن عباس بقوله : ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة المسائل التى حكاها الله فى القرآن عنهم ، وإلا فالمسائل التى سألوه عنها وبين لهم أحكامها بالسنة لاتكاد تحصى ، ولم يكونوا يسألونه عن المقدرات والأغلوطات وعضل المسائل ، ولم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل وتوليدها .

أقول ، ولا عجب أن يسلك سادتنا الصحابة فى تعلمهم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المسلك ، فقد روى ابن وهب قال : حدثنى ابن لهيعة عن لأعرج عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذرونى ما تركتكم ،

فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم .

ويؤيد الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم فى إرشاده هذا ، فإنه تعالى يقول فى سورة الحشر : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) . وقال سفيان بن عيينة عن عمرو عن طاوس قال : قال عمر بن الخطاب وهو على المنبر : أُحَرِّجُ[1] بالله على كل امرئ سأل عن شيء لم يكن ، فإن الله قد بين ما هو كائن .

وقد حرص السادة الصحابة كل الحرص على التزام أحكام الكتاب والسنة ، وقال أبو عبيد فى كتاب « القضاء » : حدثنا كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى ، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به ، وإن لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به ، فإن أعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فيه بقضاء ، فربما قام إليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا وكذا ، فإن لم يجد سُنَّة سنّها النبى صلى الله عليه وسلم جمع رؤساء الناس فاستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به ، وكان عمر يفعل ذلك ، فإذا أعياه أن يجد ذلك فى الكتاب والسنة سأل : هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء ، فإن كان لأبى بكر قضاء قضى به وإلا جمع علماء الناس واستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به .

وروى ابن القيم بسنده عن أبى مليكة قال : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إن قلت فى آية من كتاب الله برأيى أو بما لا أعلم . وروى بسنده عن ابن سيرين قال : لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبى بكر رضى الله عنه ، ولم يكن أحد بعد أبى بكر أهيب بما لا يعلم

---

(١) أمنع .

من عمر رضى الله عنه ، وإن أبا بكر رضى الله عنه نزلت به قضية ، فلم يجد فى كتاب الله منها أصلا ، ولا فى السنة أثراً ، فاجتهد برأيه ثم قال : هذا رأيى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى وأستغفر الله ؛ وإن عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر : يا أيها الناس إن الرأى إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبًا ، إن الله كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف ؛ وروى سفيان الثورى بسنده عن مسروق قال : كتب كاتب لعمر بن الخطاب : « هذا ما رأى الله وما رأى عمر ». فقال عمر : « بئس ما قلت ، قل هذا ما رأى عمر ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر » .

ويشهد إمامنا الشافعى لسادتنا الصحابة بفضلهم فى فهم الكتاب والسنة فيقول فى رسالته « البغدادية » : وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن والتوارة والإنجيل ، وسبق لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفضل ما ليس لأحد بعدهم ، فرحمهم الله ، وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء ، والصالحين ، أدوا إلينا سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشاهدوه والوحى ينزل عليه ، فعلموا ما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم عامًا وخاصًا وعزمًا وإرشاداً ، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا ، وهم فوقنا فى كل علم واجتهاد وورع وعقل ، وأمر استدرك به علم واستنبط به ، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنامن رأينا عند أنفسنا ، ولم نخرج عن أقاويلهم ، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله .

تعقيب الإمام ابن القيم :

ويقول الإمام ابن القيم تعقيباً على الكلام المتقدم :

« والمقصود أن أحدًا ممن بعدهم لا يساويهم فى رأيهم ، وكيف يساويهم وقد كان أحدهم يرى الرأى فينزل القرآن بموافقته ، كما رأى عمر فى أسارى بدر أن تضرب أعناقهم فنزل القرآن بموافقته ، ورأى أن تحجب نساء النبي صلى الله عليه وسلم فنزل القرآن بموافقته ، ورأى أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى فنزل القرآن بموافقته ، وقال لنساء النبي صلى الله عليه وسلم

لما اجتمعن فى الغيرة عليه : (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْرًا مِنكُن مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) ، فنزل القرآن بموافقته . ولما توفى عبد الله بن أبىّ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوبه فقال : يا رسول الله إنه منافق ، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عليه: (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) .

وقد قال سعد بن معاذ لما حكّمه النبي صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة إنى أرى أن تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذرياتهم، وتغنم أموالهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سمٰوات » .

ويضيف ابن القيّم قائلا : « وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنزلة ، أن يكون رأيهم لنا خيراً من رأينا لأنفسنا . وكيف لا وهو الرأى الصادر من قلوب ممتلئة نوراً وإيمانًا وحكمة وعلمًا ومعرفة وفهمًا عن الله ورسوله ونصيحة للأمة ، وقلوبهم على قلب نبيهم . ولا واسطة بينهم وبينه ، وهم ينقلون العلم والإيمان من مشكاة النبوة غضًّا طريًّا لم يَشُبْهُ إشكال ، ولم يشبه خلاف ، ولم تدنسه معارضة » .

أقول : وحقّ للسادة الصحابة أن يتلقفوا العلم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل عناية ، فقد وثقوا أن علمه كله إنما هو من عند الله ، وقد قال تعالى واصفاً علمه فى سورة النجم : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى) ، كما طمأنهم تعالى على أنه ينظر فى الأمور بنور الله ، فقال تعالى فى سورة النساء : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَق لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) ، كما قال تعالى فى السورة نفسها : (فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) ، وقد أخرج الحاكم وصححه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قلت : يا رسول

الله ، أتأذن لى فأكتب ما أسمع منك ؟ قال : «نعم» ، قلت : فى الرضا والغضب قال : «نعم ، فإنه لا ينبغي أن أقول عند الرضا والغضب إلاّ حقًّا» .

وأخرج الطبرانىّ عن معاذ بن جبل قال : ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه أو يقظته فهو حق ؛ وأخرج الشيخان عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من رآنى فى المنام فقد رآنى حقًّا فإن الشيطان لا يتمثل بى» فقد خص صلى الله عليه وسلم بأن رؤيته فى المنام صحيحة ، ومنع الشيطان من أن يتصور فى خلقته لئلا يكذب على لسانه فى النوم ، كما منع أن يتصور فى صورته فى اليقظة إكراماً له صلى الله عليه وسلم ؛ وفى شرح «مسلم» للنووى : لو رأى شخص النبي صلى الله عليه وسلم يأمره بفعل ما هو مندوب إليه ، أو ينهاه عن منهى عنه ، أو يرشده إلى فعل مصلحة ، فلا خلاف أنه يستحب له العمل بما أمر به .

ومع ما آتى الله تعالى نبيّه الكريم من العلم وشهد له به فى قوله سبحانه فى سورة النساء : (وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) ، فإنه اختار له دعوة يدعو ربه بها فقال تعالى : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا) ، ليرجع إلى ربه صلى الله عليه وسلم فى الاستزادة من العلم الربانىّ الذى لا حدّ له ، وذلك ما يدلنا على أن علمه صلى الله عليه وسلم كان فى زيادة على الدوام ، يشهد بها قوله تعالى : (وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) ، وكلمات الله التى يعلم بها أنبياءه وأصفياءه ليس لها نهاية ، فقد قال تعالى فى سورة الكهف : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) ، كما قال تعالى فى سورة البقرة : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) ، وقال سبحانه فى سورة الجمعة ممتنًّا بعلم رسول صلى الله عليه وسلم ، على جيل الصحابة والأجيال التى تلتهم فى الأمة المحمدية : (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ

obeikandi.com

الْكِتَاب وَالْحِكْمَةَ وَإن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِين * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْل الْعَظِيمِ) .

مواقف السنة من القرآن :

هذا ولا تقف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تفسير القرآن وبيانه ، وإنما السنة مع القرآن – كما يقول الإمام ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » – على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون موافقة له من كل وجه ، فيكون توارد القرآن مع السنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها .

الثانى : أن يكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له .

الثالث : أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرمة لما سكت عن تحريمه .

وقد أضاف رضى الله عنه يقول :

ولا تخرج السنة عن هذه الأقسام ، فلا تعارض القرآن بوجه ما ، فما كان منها زائداً على القرآن ، فهو تشريع مبتدأ من النبى صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته ، وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله ، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله ، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايطاع فى هذا القسم لم يكن لطاعته معنى ، وسقطت طاعته المختصة به ، وقد قال تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) .

ويزيدنا رضى الله عنه بياناً فيقول : وكيف يمكن أحداً من أهل العلم ألا يقبل حديثاً زائداً على كتاب الله، فلا يقبل حديث تحريم المرأة على عمتها ولا على خالتها ، ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم من النسب ، ولا حديث منع الحائض من الصوم والصلاة . . . وقد أخذ الناس بحديث : « لايرث المسلم الكافر ولا الكافر

obeikandi.com

المسلم » ، وهو زائد على القرآن ، وأخذوا كلهم بحديث توريثه صلى الله عليه وسلم بنت الابن السدس مع البنت ، وهو زائد على ما فى القرآن ، وأخذوا بحديث : « من قتل قتيلا فله سلبه » ،وهو زائد على ما فى القرآن من قسمة الغنائم . . . .

وانتهى الإمام ابن القيم بعد التفصيل إلى قوله : فلو ساغ لنا رد كل سنة زائدة كانت على نص القرآن ، لبطلت سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها إلا سنة دل عليها القرآن ، وهذا هو الذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأنه سيقع ولابد من وقوعه .

وهو يشير بذلك إلى حديث المقدام بن معديكرب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطة مال المعاهد » ، وفى لفظ آخر : « يوشك أن يقعد الرجل على أريكته فيحدث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله » ، قال الترمذى : حديث حسن ، وقال البيهقى : إسناده صحيح ؛ وقال صالح ابن موسى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى قد خلفت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتى ، ولن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض » .

البيان النبوىّ :

ويعلمنا الإمام ابن القيم رضى الله عنه أن البيان من النبى صلى الله عليه وسلم أقسام :

أحدها : بيان نفس الوحى بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيًّا .

الثانى : بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلى ذلك ، كما بين أن الظلم المذكور فى قوله تعالى : (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) هو الشرك ، وأن الحساب اليسير هو العرض ، وأن الخيط الأبيض والأسود

هو بياض النهار وسواد الليل ، وأن الذى رآه نزلة أُخرى عند سدرة المنتهى هو جبريل ، كما فسرقوله : (أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) أَنه طلوع الشمس من مغربها ، وكما فسر قوله: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) - بأَنها النخلة .. وكما فسر إدبار النجوم بأَنه الركعتان قبل الفجر ، وأَدبار السجود بأَنه الركعتان بعد المغرب ونظائر ذلك .

الثالث : بيان بالفعل ، كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله .

الرابع : بيان ما سئل عنه من الأحكام التى ليست فى القرآن ، فنزل القرآن ببيانها ، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره .

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحى وإن لم يكن قرآناً ، كما سئل عن رجل أحرم فى جبة بعدما تضمخ بالخلوق ، فجاء الوحى بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق .

السادس: بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال ، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك .

السابع : بيانه للأمة جواز الشىء بفعله هو له ، وعدم نهيهم عن التأسى به .

الثامن : بيانه جواز الشىء بإقراره لهم على فعله وهو يشاهده ، أو يعلمهم يفعلونه .

التاسع : بيانه إباحة الشىء عفواً بالسكوت عن تحريمه ، وإن لم يأذن فيه نطقاً .

العاشر : أن يحكم القرآن بإيجاب شىء أو تحريمه أو إباحته، ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف ، فيحيل الرب سبحانه وتعالى على رسوله فى بيانه كقوله تعالى :(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ) فالحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته

وأهلية المحل ، فإذا جاءت السنة ببيان ذلك كله لم يكن الشيء منه زائداً على النص فيكون نسخًا له وإن كان رفعًا لظاهر إطلاقه .

حاجتنا إلى السنة النبوية :

أقول : ومما تقدم يبين أن الأمة ملزمة بأحكام الكتاب والسنة ، ولا تستطيع أن تكتفى بالكتاب دون السنة ، وإلاّ كانت عاصية لله الذى فرض عليها طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمر به أو نهى عنه ، وجعل طاعته طاعة له (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) ، وجعل طاعته سبيل الاهتداء للحق ، فقال تعالى فى سورة النور:(وإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) ، ويقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة الجاثية : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ❊ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ❊ هٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) ويقول تعالى للمؤمنين فى سورة الأعراف : (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) ، كما يقول تعالى فى سورة النساء : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) ؛ وأجمع العلماء على أن رد الأمر إلى الله تعالى هو الرد إلى أحكام كتابه الكريم، والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرد إليه نفسه فى حياته الشريفة، وإلى سنته بعد وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، كما بين العلماء أن الله تعالى أعاد الفعل فى قوله سبحانه: (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) إعلامًا للأمة بأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تجب على المؤمنين استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر بأمر صلى الله عليه وسلم — وجبت طاعته مطلقًا ،سواء كان أمره فى الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه كما جاء فى الحديث أوتى القرآن ومثله معه . وبين العلماء كذلك

أن إضافة أولى الأمر إلى الرسول دون إعادة فعل « وأطيعوا » ، يفيد أن طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول وليست مستقلة عنها ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بمعصية فلا سمع له ولا طاعة ، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم: « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، كما قال صلى الله عليه وسلم: « إنما الطاعة فى المعروف » ، وقال فى ولاة الأمور : « من أمركم بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة » . وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها « أنهم لو دخلوا لما خرجوا منها » ، مع أنهم كانوا يدخلونها طاعة لأميرهم ، وظنًا أن ذلك واجب عليهم ، فقصروا فى الاجتهاد ، وأقدموا على تعذيب أنفسهم ، وحملوا عموم الطاعة على ما لم يرده شرع الله .

وقال العلماء كذلك إن الآية السابقة تفيد أن أهل الإيمان قد يتنازعون فى بعض الأحكام ، ولا يخرجون بذلك عن الإيمان ، وقد تنازع الصحابة فى كثير من مسائل الأحكام ، وهم سادة المؤمنين وأكملهم إيمانًا ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا فى مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم .

وقالوا أيضاً إن قوله تعالى : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ) نكرة فى سياق الشرط ، تَعُم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين جَلِيِّهِ وَخَافِيهِ ، ولو لم يكن فى كتاب الله وسنة رسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافياً ، لم يأمر بالرد إليه إذ من الممتنع أن يأمر الله تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع ، وقد جعل الله رد الأحكام إلى الله ورسوله من موجبات الإيمان ولوازمه ، وأنه خير للمؤمنين فى عاجلهم وآجلهم ، وقد حظر الله على المؤمنين أن يختاروا قضاء غير قضاء الله ورسوله ، فقال تعالى فى سورة الأحزاب : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً) ، وكيف لا تكون معصية الله ورسوله ضلالا مبيناً وقد جعل الله رفع الصوت على صوته صلى الله عليه وسلم محبطاً للعمل ، فقد قال تعالى

obeikandl.com

فى سورة الحجرات : (يَـأَيها الَّذِينَ آمنَوا لا تَرْفعُوا أَصْوَاتَكمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهرُوا له بالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبعضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَاتَشْعُرُونَ).

وإحباط العمل هو الرد إلى الكفر ، ألست تراه تعالى يقول فى سورة الزمر : (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ، فإذا كان رفع الصوت فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم محبطاً للعمل ومؤدياً إلى الكفر ، فكيف بتفضيل أهواء النفوس على أحكام الله ورسوله .

الشرع والقوانين الوضعية :

ومن فضل الله على البلاد الإسلامية ، أنها ما زالت تلتزم حدود الله فى أحكام العبادات ، وفى جانب من أحكام المعاملات ، وبخاصة أحكام الأحوال الشخصية والمواريث ، ولكن المستعمرين تركوا فيهم تشريعات وضعية نقلها المستعمرون أيام الاستعمار عن بلادهم ، وهى تختلف عن شرع الله ، وتتفق مع أغراض المستعمرين وأهوائهم ، فبعض تلك التشريعات الوضعية مثلا يبيح الزنا وبيع الخمر والإقراض بالربا... إلخ ، ويعاقب السارق بالحبس ولا يقطع يده كما هو فى حكم الإسلام ، ولا يرجم الزانى المحصن أو يجلد غير المحصن، ولا يقتل أو يصلب الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً ، لا ، بل زاد المستعمرون الطين بلة وأقاموا أيام الاستعمار القضاء المختلط الذى ميزهم عن أهل البلاد ، وأذكر فى هذه المناسبة بعض ما قاله شيخى العارف بالله المرحوم الشيخ على عقل (توفى ١٩٤٨) : وكان قد سئل أن يأتى ببعض أبيات فورية على قول القائل :

مدحت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا

فقال إلهاماً لوقته من فتح الله عليه ونقلناه عنه :

مدحت رسول الله إذ جاء بالهدى وهذب بالإسلام نفسى وطهرا

أفاض على الدنيا السماحة والندى … وطاف عليها بالسلام وبشرا
وشابهت الأرض السماء وضاءة … ألم تر أن الكون بالوحى نورّا
ورقت بها الأرواح كالروض تزدهى … صفاء من الإيمان بالحق أثمرا
فلن تعبد الأصنام بعد محمد … أتعبد والقرآن منه تفجرا
وبدد عنا الجهل والجهل خسة … وشرفنا التوحيد سرًّا ومظهرا
فيا أمة الإسلام ماذا أصابكم … أترضون للإسلام أن يتأخرا
تركتم حدود الله وهى سلامة … وأهملتمو آثار من هذبوا الورى
وفيكم كتاب الله يشرق آية … وفى حكمه منجى وفى هديه قِرى
زعمتم بأن الغرب فجر حضارة … وما الغرب إلا بالمآثم قد جرى
أباح الربا جهراً وما حرّم الزنا … وقد حلل الصهباء واستعمر الورى
إذا نحن قلنا ليس فى الغرب حكمة … تقولون لولا الغرب لن نتحضرا
أرى الغرب لو للعدل قامت حروبه … لما جال فى أفيائنا وتبخترا
فوالله لا نرقى إلى أوج العلا … ولن نرزق النصر الذى قد تأخرا
سوى باتباع الشرع فالشرع عزنا … ونحن بهذا الشرع لن نتقهقرا
فنذكر عهد الأقدمين ومجدهم … هدى الناس كانوا للحضارة مصدرا
ونذكر خير الخلق يهدى نفوسنا … ويتلو كتابًا كالمجرة نيرا

ولاخلاف فى أن ما شرعه الله للمسلمين من أحكام العبادات والمعاملات كفيل بصيانة الفرد والجماعة من الخالل ، كما أنه كفيل براحة الحاكم والمحكوم ، وضامن للمجتمع السلام والأمن ، كما ثبت ذلك بالتجربة العملية فى أجيال المسلمين الأولى ، حين عملوا بأحكام الله فى أيام سيادتهم وحريتهم ، وقد هذّبت العبادات أكثرهم ، ومن لم تهذبه العبادات فتعدى حدود الله ، وطغى على حق غيره ، أخذ الحاكم منه الحق بالقصاص الشرعى ، وحمله بالقصاص على الاستقامة ، وكان فى القصاص ردع كاف له ولغيره ، فاستقام الكل طوعًا أو كرهًا ؛ وصدق سبحانه فى قوله الكريم فى سورة البقرة : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ، وهو قول صادق إلى الأبد لأنه قول العليم الحكيم .

ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه فى تعقيبه على تلك الآية الكريمة : هذا من الكلام البليغ الوجيز ، والمعنى أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه ،

ازدجر من يريد قتل آخر مخافة أن يقتص منه فحييا بذلك معًا ، وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر ، حمى قبيلاهما وتقاتلوا ، وكان ذلك داعيا إلى قتل العدد الكثير ، فلما شرع الله القصاص ، قنع الكل ، وتركوا الاقتتال ، فلهم فى ذلك حياة .

ويضيف الإمام القرطبي قائلا :

« اتفق أئمة الفتوى على أنه لايجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان (أى الحاكم) ، وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض ، وإنما ذلك للسلطان أو مَنْ نصبه السلطان لذلك ، ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدى الناس بعضهم عن بعض .

« وأجمع العلماء على أنه يجب على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدى على أحد من الرعية ، إذ هو واحد منهم، وإنما له مزية النظر لهم كالوصى والوكيل، وذلك لايمنع القصاص، وليس بينهم وبين العامة فرق فى أحكام الله لقوله عز وجل: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى) » .

وروى النسائى عن أبي سعيد الخدْرى قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم شيئاً إذ أكب عليه رجل ، فطعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرجون كان معه ، فصاح الرجل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعال فاستقد » قال : بل عفوت يا رسول الله . وروى أبو داود عن أبي فراس قال : خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ألا من ظلمه أميره فليرفع ذلك إلىّ أقده منه ، فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين لئن أدب رجل منا رجلا من أهل رعيته لتقصنه منه ، قال : كيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ؟

وختاماً أقول مفتخراً إن مصر — وطننا العزيز — عنيت من قديم ، وازدادت عناية فى العهد الحاضر ، بخدمة الكتاب والسنة وحفظ تراثهما الخالد ، ومن ينكر على مصر رائدة المسلمين تلك المجهودات القيمة التى بذلها ويبذلها الأزهر الشريف، ومجمع البحوث الإسلامية ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومجمع اللغة

العربية ، أو الدعوة إلى المؤتمرات الإسلامية التى عقدت فى السنين الأخيرة بالقاهرة ، وتشاورت فى أمهات المسائل الإسلامية ، وفى طليعتها تقنين الأحكام الشرعية ، لتطبيقها فى البلاد الإسلامية التى استردت حريتها وعزتها ، ونفضت عن نفسها عار الاستعمار وحكم المستعمرين ، واستعادت سلطانها فى حكم شعوبها بشرع الله القويم .

وإليكم ما أوصى به بالنسبة للتشريع الإسلامى المؤتمر الإسلامى الرابع الذى انعقد بالقاهرة ممثلا لنحو ثلاثين دولة إسلامية فى المدة من ١٧ من رجب إلى ٢ من شعبان ١٣٨٨ (الموافق ٩ – ٢٤ من أكتوبر ١٩٦٨) :

١ – يوصى المؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بتأليف لجنة من رجال الفقه الإسلامى والقانون الوضعى ، تضطلع بوضع الدراسات ومشروعات القوانين التى تيسر على المسؤولين فى البلاد الإسلامية الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية فى قوانين بلادها كقوانين العقوبات والتجارى والبحرى .

٢ – يدعو المؤتمر المجمع لدراسة القاعدة الإسلامية التى تقرر أنه لا يطل دم فى الإسلام ، وأن من قتل ولم يعرف قاتله تدفع ديته من بيت المال .

٣ – يوصى المؤتمر بأن يعمل المجمع على التعريف فى النطاق الدولى بأحكام العقوبات الإسلامية ، والأسس التى قامت عليها ، والنتائج المترتبة على تطبيقها .

أقول : وهذا الصبح الذى أسفر بعد ظلام ليل الاستعمار ، يبشرنا جميعاً نحن المسلمين بنهار مشرق ، نرى الحق فيه واضحًا جليًّا فيما شرع الله لنا من أحكام ديننا الحنيف ، الذى أراد الله إسعادنا به فى أمور ديننا ودنيانا ، ومَنَّ علينا بكماله فى قوله الكريم فى سورة المائدة : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) .

وإليكم فقرات من نور وردت فى رسالة بعث بها السيد الرئيس محمد أنور السادات إلى مؤتمر الدعوة الإسلامية المنعقد فى طرابلس بليبيا ، كما جاءت فى صحيفة الأهرام الصادرة فى ١٦ من شوال ١٣٩٠ ، قال حفظه الله فى تلك الرسالة التى

obeikandi.com

قرأها على المؤتمر السيد محمد توفيق عويضة رئيس وفد بلادنا إلى المؤتمر :

أيها الإخوة ؛ إنكم تجتمعون للتفكير فى أنجح الوسائل للدعوة إلى الإسلام ولتبصير الناس بما يكفله للبشر من حق وسعادة، ترفرف أعلامها على الأفراد والأسر والعالم بأسره ، وهذا حق للإسلام وواجب عليكم ، لأن الإسلام دعوة عامة لاتنحصر فى مجتمع ، ولا تحتبس فى بيئة ، ولا تقتصر على جنس .

فالدعوة إليه واجب ، لامندوحة للمسلمين أن يقوموا به أفراداً وجماعات وحكومات ، معتمدين على الحكمة والموعظة الحسنة . . .

أيها الإخوة . اسمحوا لى أن أمد بصرى إلى الماضى لأرى كثيراً من الدارسين حاولوا معرفة السر الذى نفخ فى المسلمين الأولين تلك القوى المادية والنفسية . التى نقلتهم فى أقصر من قرن واحد من القلة إلى الكثرة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الجهالة إلى الحضارة ، فانتشروا فى أرجاء الأرض هداة ودعاة وينابيع للحق والخير والحرية والمساواة ، وسادة يذيعون العدل فى الناس ويقضون فى شئونهم بالقسطاس .

« لكن هذه القوة التى حار الدارسون فى الكشف عنها ، ليست سراً غامضاً ولا غيبًا محجبًا ، لأنها وليدة العقيدة، وما تتضمنه العقيدة القوية الصحيحة من أعمال صالحة نافعة للفرد وللأمه ، ومن أخلاق عظيمة رباهم الإسلام عليها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوتهم فى كل فضيلة ، فارتفعوا بالإسلام إلى الذروة بين الأمم التى عاصرتهم ، وإلى سيادة العالم سيادة عقيدة ولغة وعلوم وأخلاق وحضارة .

« وإذا كانت عوامل شتى من الاستعمار والجهل والتخلف والفرقة قد حجبت عنهم الرؤية حينًا من الدهر ، فإنهم اليوم قد نهضوا من رقادهم ، ومسحوا عن عيونهم ماغشاها ، فأيقنوا أن مجدهم مرهون بالاعتصام بدينهم ، وأن عزتهم مرتبطة بإعزاز عقيدتهم ، فجعلوا يتنادون إلى الاستمساك بالإسلام ، ويفكرون فى الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين .

أيها الإخوة . لن تستطيع الدعوة إلى الإسلام أن تنفصل عن الدفاع عن حرماته ومقدساته ، لأنها جزء من العقيدة لايتجزأ ؛ ولقد صبر المسلمون طويلا على عدوان إسرائيل حتى ضاق بهم الصبر ، وشكوا إلى العالم من جرائمها فى فلسطين وفى الأرض العربية المحتلة . . . .

أيها الإخوة . أكرر تحيتى لكم ، وأدعو الله وهو نعم المسؤول ونعم المجيب ، أن يكلل برعايته مؤتمركم ، وأن تنجلى اجتماعاتكم عن تخطيط سديد رشيد لأعمال مجيدة يعتز بها الإسلام وفئات الملايين من المسلمين، الذين يتطلعون إلى نتائج مؤتمركم المبارك » .

أقول : ويطالع القارئ الكريم فى الباب التالى ، تاريخ الدعوة إلى الإسلام والجهاد فى نشره ، فيتبين كيف صبر الرسول صلى الله عليه وسلم وصابر ، وكيف حمل هو وأصحابه أعباء الجهاد بالنفس والمال ، حتى أظهر الله الإسلام على الدين كله ولو كره الكافرون .

obeikandl.com